الاتجاهات الحديثة في الإسلام : (*)

أسس الفكر الاسلامي

للأستاذ ه . ا . ر . جب

أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد وعضو مجمع فؤاد للغة العربية

إذا أردنا أن نحيط علماً بالتيارات الفكرية الدينية بين المسلمين اليوم ، واجهتنا صعوبة عملية . فلم تحدث حركة فكرية من غير أن يكون لها تأثير . وسواء كانت دوافعها كثيرة وقوية أو قليلة وضعيفة ؛ فلابد من حدوث صدى لها . ولا يمكننا أن نتتبع الحركات الحديثة في الإسلام بدون أن نرفع القواعد من الأفكار الإسلامية .

وقد يبدو واضحاً أن الأساس المقنع هو الدولة الإسلامية في القرن التاسع عشر . . أو على الأقل الإسلام في القرن الثامن عشر . ولكن هذه موضوعات لا زالت معلوماتنا عنها محدودة . وقد ذهب كتاب الإسلام إلى الاهتمام بالقرون الأولى إبان التقدم العلمي والديني ، وظهور حركة الصوفية وإخوان الصفاء . وبعد القرن الثالث عشر أو ما يقرب من ذلك ، كان معتقداً أن الإسلام باق على قواعده الثابتة التي خلقها له العلماء والمشرعون والحكماء والروحانيون ، فلن يتقدم بل يتأخر . وهذا الرأى يتراءى لنا — من بعض الوجوه — أنه صحيح . والحق أنه صدر عن احد علماء الإسلام المحدثين . ولكن لم تبق نظم العقيدة والفكر سائدة أكثر من ستة قرون . وإذ تقدمت القواعد

(*) H ' A ' R ' gibb : Modern Trends in Islam ' chicago 1947

أحدث مؤلفات المستشرق المشهور : ا . ر . جب أستاذ اللغة العربية بجامعة اكسفورد . وقد ولد بمصر وقضى سنوات عديدة في الدراسة والكتابة عن الإسلام والمسلمين . وقراء العربية يعرفونه من بحوثه في مجلة الأدب والفن . وعندما كان أستاذاً زائراً للدين المقارن بجامعة شيكاغو بالولايات المتحدة ، وضع الأستاذ جب هذا الكتاب الذي تقدم اليوم ما تيسر من فصله الأول . وهو يكشف عن أساس وأسباب وطبيعة حركة المجددين ويحلل أهدافها ، ويشرح جهاد مفكري الإسلام أمثال جمال الدين وأحمد خان ومحمد إقبال ، والصراع بين روح الشرق وعقل الغرب ، ويبحث القانون والمجتمع في الإسلام ، وأخيراً يتحدث عن الإسلام =

= في العالم .

وليس من شك في أن آراء الأستاذ جب جديرة بالاهتمام . وقد أهدى كتابه هذا إلى ذكري « محمد حسين عبد الرازق » تخليداً لصداقة ٢٥ عاماً . (المترجم)

هؤلاء : يا آل الأوس ! ونادى هؤلاء : يا آل الخزرج ! ولم ينصرف اللعين إلا بعد أن احمرت الأحداق ، واحتدم الغيظ ، وثارت الأحقاد ، وتطايرت الدماء إلى الرؤوس ، وافترقوا وقد تواعدوا على القتال ...

* * *

سمع رسول الله بما أصاب الأنصار ، فخرج إليهم فيمن كان معه من المهاجرين وفي وجهه الغضب ، ووقف بينهم يرمقهم بنظرات أرجعتهم إلى صوابهم ، وأعادت إليهم رشدهم ، ثم تطلع إليهم بعينين دامعتين وقال — وقد ملك عليهم ألبابهم ، وتمكن من شغاف قلوبهم — : « يا معشر المسلمين ! الله الله ! اتقوا الله ! أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ! بعد أن هداكم الله إلى الإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر ، وألف به بينكم » ... ولم ينته صلى الله عليه وسلم من كلامه حتى عرف القوم أنها نزغة شيطانية ، ومكيدة يهودية ، فتعانقوا وتمتمت ألسنتهم بكلمات الأخوة الحق ، والتوبة الصادقة ، وانثرت من محاجرهم دموع الندامة ، وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد عاهدوه على الإخلاص لهذا الدين ، والاعتصام بحبل الله المتين ... وإذا بوحي الله ينزل على الرسول بهذه الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا ، إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ، ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون »(١)

(دمشق — المزة) عمر الخطيب

(فتى الفيحاء)

(١) سورة آل عمران

الظاهرية للعقيدة الإسلامية فى هذه الفترة ، فإن التكوين الأصلى لحياة المسلمين الدينية ، قد اعتراه التغيير والإصلاح .

وسنمعن النظر فقط فى الظواهر الحيوية الخارجية التى ظهرت فى الإسلام ، مثل تكوين الامبراطورية العثمانية فى الشرق الأدنى ، وقيام امبراطورية المغول فى الهند ، ونشاط الشيعة فى فارس ، والتوسع فى أندونيسيا وشبه جزيرة الملايو ، ونمو المجتمع الإسلامى فى الصين ، وطرد الإسبان والبرتغال من مراكش ، وامتداد نطاق الإسلام فى شرق أفريقيا وغربيها . وقد اعتبرها قدماء المؤرخين حركات حربية ، وإن عقيدة الغزو والتوسع عقيدة حية . ونحن نعرف — أكثر من قبل — الدور الذى لعبته هذه العقيدة .

إن أساس الفكر الإسلامى هو بالطبع : القرآن . وليس القرآن — كالإنجيل مجموعة كتب ذات تواريخ مختلفة وبأيدى متباينة ؛ إنه سفر من السور بلغها محمد (ص) فى السنوات العشرين الأخيرة من حياته تقريباً . فيشتمل على تعاليم دينية وأخلاقية ، ومجادلات ضد الكفار ، وخلاصات للحوادث السابقة ، وقواعد للشئون الاجتماعية والمسائل الشرعية . وقد اعتقد محمد (ص) أن كل ما جاء به من هذه الأمور كان بوحى من الله ، إذ لم يكن مصطبغاً بفكره الخاص . إنه كلام الله نفسه قام بتلقينه الملاك جبريل . وبعد ما قاله الأستاذ دنكن بلاك مكدونالد من اقتراب العالم المجهول من العقل السامى وعن نظرة الشرقيين للنبوة ، فإن من الضرورى أن أتتبع الأسس النفسية لهذه العقيدة .

إننا قد نحيد عن الصواب إذا اعتبرناها مجرد نظرية (بديهية) متوارثة جيلا بعد جيل منذ ألف وثلاثمائة عام . بل هى على النقيض من ذلك اعتقاد حى طالما تجدد وثبت فى عقل المسلم — وخاصة العربى — بدراسته للكتاب المقدس .

لقد عارض المسلمون المتدينون عامة فى ترجمة القرآن ، حتى إلى اللغات الإسلامية الأخرى (١)

وهذا الاتجاه تؤيده أدلة نظرية ، منطقية فى حد ذاتها ، ولكن يمكن أن تعارض من اعتبارات مختلفة . ذلك أن القرآن أساساً غير قابل للترجمة ، كما هو الحال فى الشعر الرصين . إن النبى لا يستطيع أن ينقل نبوءته إلى لغة عادية ، يمكنه أن يعبر عن نفسه فى صور متكسرة ، كما تلعب موسيقى الأصوات دوراً غير محدود فى جذب عقل السامع لتلقى الرسالة . مثلا حالة الترجمات اللاتينية والإنجليزية لكتاب الإغريق والعبريين ؛ فقد أعطوا الكلمات الجديدة شيئاً من القوة العاطفية ، بدون اعتماد على التركيب — وأحياناً المعنى — الأصلى .

وإن ترجمة إنجليزية للقرآن ، ينبغى أن تستخدم تعبيرات دقيقة صحيحة للعبارات الرقيقة الذهبية فى اللغة العربية ، وفى نواحى القصص والتشريع وما أشبه ذلك ، تكون الخسارة أقل خطراً ، بالرغم من أن تفكك المعلومات ، بل والظلال الجميلة والجوانب البليغة ، قد يكون لها تأثير غير محدد . ففى جملة بسيطة مثل « بالتأكيد نحن نحيى ونميت وإلينا الرحيل (المصير) » : (verily Wegive life and death and unto Us js (the journeying يستحيل علينا أن نظهر — فى الإنجليزية أو أية لغة أخرى — قوة الضمير « نحن » المكرر خمس مرات فى الكلمات الست الأصلية (١) .

إننا لن نتطلع إلى معنى القرآن عند العربى ، حتى نتبين قيمة الدور الذى تقوم به اللغة فى تحديد المواقف السيكولوجية .

فبزوغ الحياة العقلية عند العرب — كما بين الآخرين — قد ازدهر بالخيال ، الذى ظهر فى الإبداع الفنى . ولطالما قيل إنه ليس للعرب فن ، وقد يكون هذا صحيحاً إذا حددنا الفن بأعمال كالنحت والطلاء ... ولكنه يكون تحديداً ظالماً خاطئاً . فالفن هو أى إنتاج يعبر فيه الشعور الجمالى عن نفسه . وهناك شك فى حاجة الناس إلى التعبير الفنى بأى شكل ، سواء فى الموسيقى أو الرقص ، أو الفنون المادية والنظرية الأخرى ... وميدان الشعور الجمالى عند العرب هو أساساً الكلمات واللغة ، وهذا أكثر إغراء بل أعظم ثباتاً وخطراً من سائر الفنون . إذن فمن السهل أن نفهم السبب فى أن العرب — الذين عندهم استخدام الكلام البليغ أسمى الفنون — يرون فى القرآن أعجوبة حقيقية وعملا فوق طاقة البشر .

ولقد كان العرب والمسلمون عامة مجبرين على إنكار الأفكار

(١) يرى علماء الأزهر الآن جواز ترجمة القرآن لأغراض غير دينية بواسطة مسلمين أعاجم : أنظر نور الإسلام (مجلة الأزهر) ص ٢ ص ١٢٢ — ١٣٢ ، ص ٨ ص ٧٧ — ١١٢ ، ص ١٢٣ - ١٣١ ، وخاصة بحث الأستاذ محمد فريد وجدى : « الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن » ويعارض الرأى بشدة السلفى الشيخ رشيد رضا — فى كتابه : « ترجمة القرآن » ، (القاهرة ١٩٢٦) .

(١) سورة ٥٠ آية ٤٢ : إنا نحن نحيى ونميت وإلينا المصير (ق)

العالمية مثل « القانون الطبيعي » أو العدل المثالي ، وأظهروا الثنائية أو المادية على أنها مؤسسة على طرق مزيفة في التفكير تنتج خيراً قليلا وشراً كثيراً . وسنرى كيف أن مصلح الإسلام الكبير — في القرن التاسع عشر — جمال الدين الأفغاني ، صب جام غضبه على المجددين الهنود الذين حاولوا إثبات صدق الإسلام بمناقشة « تلاؤمه مع الطبيعة » . ومع أن العلماء المسلمين قد وجدوا في المنطق والرياضيات — مثلا — فائدة ، وشجعوا الأسلوب « العلمي في التفكير ؛ إلا أنهم قد أبقوا هذه الأمور في مراتب ثانوية .

والإجماع من مميزات الفكر الإسلامي . وهناك من حاولوا تحديده بإجماع المتعلمين ، ولكن حادثاً عجباً في القرن السابع عشر يبين كيف كان هذا النوع لا فائدة منه ، حتى ولو آزرته القوة الحاكمة ضد الرأي العام . فعند ما بدأ استعمال القهوة ينتشر في الشرق الأدنى ، أجمع العلماء على أن شرب القهوة حرام ، وعقوبته مثل عقوبة شرب الخمر . وفعلا حوكم بعض الأفراد لانغماسهم في شربها علانية ! (١) ولكن إرادة المجتمع تغلبت . واليوم يحتسي الجميع القهوة بحرية حتى المتزمتون الذين يعارضون الإجماع في البدأ .

ومن الواضح أن الإجماع كان دائماً موضع خلاف بين المحافظين والمجددين ، وهو ليس مبدأ حرية بل أساساً للسلطة ، ولو أن حكمه يقتصر على المسائل التي لم يحكم فيها القرآن أو السنة ، لذلك ولأنه قوة تسمح بما يسمى تجديدا ، فإن العلماء الروحانيين على مر العصور — من القرن الثالث إلى الوهابيين اليوم يعارضون فيما يترتب عليه ، ويقصرون شرعيته على الجيل الأول من المسلمين . هذا في حين أن المجددين على الدوام قد اعتمدوا عليه في توسيع مدى عدالة أعمالهم (٢) .

والاجتهاد عكس الإجماع . وقد أطلق عليه إقبال « مبدأ الحركة في الإسلام » ولابد من معرفة معنى الاجتهاد والدور الذي لعبه في تاريخ الفكر الإسلامي . وهو — كما يعتقد بعض المجددين حرية الحكم . ومن الناحية الأدبية يعني الاجتهاد : إجهاد النفس في محاولة الكشف عن الأغراض الحقيقية لتعاليم القرآن والسنة . وقد عمل المتدينون على تحديد موضوعه خوفاً من أن يفتح باب المعارضة الفردية والانقسام . وأخيراً لم تبق ثغرة في هذه المسائل لم تسد ، فأقفل باب الاجتهاد تماماً (١).

ومهما يكن من شيء فإنها ظاهرة خطيرة للسنة الإسلامية Sunni Islam في قبولها للاختلافات الواقعة في الرأي في المجتمع — ولطالما تفخرت بهذا — وأحسن مثل هو المذاهب الأربعة في الشرع : الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي ، أسسها الأئمة الأربعة في القرنين الثاني والثالث ، وهم جميعاً من السنيين . فهذه المذاهب — مثلا — تدرس في جامعة الأزهر الدينية . حقاً إن الاختلافات بينها تنحصر في نقط ضيقة في الشرع والشعائر ، بالرغم من أن الحنابلة — بعدائهم المستحكم لكل المجددين — يعارضون الإجماع من الناحية الدينية — في كل شيء إلا مدلوله الضيق ، وأحياناً يظهرون عدم رضائهم عن الآراء الأخرى .

(يتبع) ترجمة محمد محمد علي

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية ، مادة « قهوة » ، بقلم س . فان أرندنك .

(٢) يجد القارىء خلاصة لنتائج البحث في الإجماع في كتاب : O ' Peste ; Le Fondements du droit musumau ' Casad lanca ' 1644 . وكذلك دائرة المعارف الإسلامية مادة إجماع بقلم د . ب . كدونلد . وقد ظهر حديثاً كتاب (الإجماع في الشريعة الإسلامية لصاحب المعالي علي عبد الرازق بك . (المترجم)

(١) نوقش موضوع تحديد الاجتهاد في نور الإسلام — مع إشارة خاصة إلى دعاوى المجددين : س ١ ص ٣٧ — ٤٢ ، ٣ ص ٢٨٤ — ٢٨٦ ، س ٤ ص ٣٩١ . وتجد الرأي الإصلاحي السلفي في كتاب . H ' Laoust Le Califat dans la doctrine de Rachid Rida ' Beirut ' 1638 -

محمود الخفيف

يقدم

من وراء المنظار

صور انتقادية فكهة من حياتنا الاجتماعية